(٢) خطبته ﷺ فى أول جمعة صلاها بالمدينة

قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى : أخبر ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحى أنه بلغه عن خطبة النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى أول جمعة صلاها بالمدينة فى بنى سالم بن عمرو ابن عوف رضى الله عنهم :

« الحمد للّه، أحمدُه وأستعينُه وأستغفرُه ، وأستهديه وأومنُ به ولا أكْفُرُه ، وأُعادى مَنْ يَكْفُرُه ، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللّه وحده لا شريكَ له،وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، أرسَلَهُ بالهُدَى ودِيْنِ الحقِّ والنُّورِ والموعظةِ على فَتْرَةٍ مِنَ الرسل[1] وقِلَّةٍ من العِلْمِ وضلالةٍ من الناسِ وانقطاعٍ مِنَ الزمانِ، ودُنُوٍّ مِنَ السَّاعةِ ، وقُرْبٍ من الأجَل. مَنْ يُطعِ اللّهَ ورسولَهُ فقد رَشَد، ومَنْ يَعْصِهِمَا فقد غَوَى وفَرَطَ وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأُوصيكم بِتَقْوَى الله فإنه خيرُ ما أُوصى به المسلم أنْ يحضَّه على الآخرة وأنْ يأمره بتقوى اللّه، فاحْذَروا ما حذَّركم اللّهُ مِنْ نفسه ، ولا أفضلَ من ذلك نَصيحةٌ ، ولا أفضلَ من ذلك ذِكْرَى[2]،

---

(١) فترة ـ بفتح فسكون ـ أى : على انقطاع بعثهم .

(٢) الذكرى : الموعظة والتذكير .

وإنه تقوّى لِمَنْ عَمِلَ به على وَجَلٍ ومَخافة ، وعَوْنٍ صِدْقٍ على ما تبتغون مِنْ أمْرِ الآخرة ، ومَنْ يُصلحِ الذى بينه وبين اللّه من أمْرِ السرِّ والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجهَ الله ، يكنْ له ذِكْراً فى عاجلِ أمْرِه وذُخراً فيما بعد الموت حينَ يفتقرُ المرءُ إلى ما قدَّم .. وما كان من سوَى ذلك : يودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(١) والذى صَدَقَ قوله وأنجزَ وَعْدَه لا خلفَ لذلك ، فإنه يقول تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٢) واتقوا الله فى عاجل أمْرِكم وآجله فى السرِّ والعلانية ، فإنه ﴿ . . . مَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾(٣)، ومن يَتَّق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تَقْوَى الله تُوَقِّى مَقْتَه وتُوقِّى عقوبته وتُوقِّى سَخَطَهُ(٤) وإنَّ تَقْوَى الله تُبَيِّضُ الوجه ، وتُرضِى الربَّ ، وتَرفعُ الدرجة . خُذوا بحظِّكم ولا تفرِّطوا فى جَنْبِ اللّه(٥) ، قد علّمكم الله كتابَهُ ونَهَجَ لكم سبيلَهُ : لِيَعْلَمَ الذين صَدَقُوا وليعلمَ الكاذبين . فأحْسِنوا كما أحسنَ اللهُ إليكم، وعَادُوا أعداءَهُ وجَاهِدوا فى الله حقَّ جهاده(٦)هو اجْتَباكم

---

(١) سورة آل عمران : ٣٠ . (٢) سورة ق : ٢٩ .

(٣) سورة الطلاق : ٥ .

(٤) وقّاه ـ بالتشديد ـ : صانه ، والسخط ـ بفتحتين ، وبفتح فسكون ـ : ضد الرضا .

(٥) أى : فى أمره وحده الذى حدّه لكم .

(٦) حق الجهاد هو الإخلاص فى النية والعمل ، وقال ابن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى .

وسَمَّاكم المسلمين ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[1] ولا قُوَّةَ إلا بالله، فأكثروا ذِكْرَ الله واعْمَلوا لما بعدَ الموت، فإنه مَنْ أصلحَ ما بينه وبينَ الله يَكْفِه ما بينه وبينَ الناس، ذلك بأنَّ اللهَ يَقْضِي على الناس ولا يَقْضُونَ عليه، ويَملك من الناس ولا يَملكون منه، الله أكبر، ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم» .

(قال ابن كثير فى البداية (ج٣ ص٢١٣) : هكذا أوردها ابن جرير ، وفى السند إرسال . ووردت فى تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥ ، والقرطبى فى تفسيره ج ١٨ ص٩٨) .

فى هذه الخطبة الجامعة ـ كما قرأنا ـ نلاحظ أن النبى ﷺ ركز بصورة واضحة : على الترغيب فى تقوى الله تبارك وتعالى ، وذلك لأن التقوى ـ كما جاء فى نص وصية محمدية[2] ـ هى رأس الأمر كله ، هذا بالإضافة إلى أن التقوى ـ كما جاء فى نص الخطبة ـ تُوقِّى مَقْتَ الله وعقوبته وسخطه ، وتبيِّض الوجه وتُرضى الرب ، وترفع الدرجة : ومن يَتَّقِ الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، كما يرغِّب النبى ﷺ فى نهاية هذه الخَطبة : فى ذكر الله والعمل لما بعد الموت ، وذلك لأن ذكر الله تعالى هو طب القلوب ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ونور الأبصار وضياؤها ، به تطمئن القلوب ، وتنفرج الكروب ، وتغفر الخطايا

---

(١) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٢) رواها ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

والذنوب . وأما عن العمل الصالح لما بعد الموت : فهو السبيل إلى النجاة والفوز :

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾(١) ، ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾(٢) ، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) .

** فلنذكر جميعاً كل هذا، ولنغتنم كل لحظة فى حياتنا، فقد ورد فى الحديث الشريف :

* عن أبى هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **بَادِرُوا بالأعمالِ الصَّالحةِ ، فستكونُ فِتَنٌ كقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مؤمناً ويُمْسِي كافراً ، ويُمْسِي مؤمناً ويُصْبِحُ كافراً ؛ يبيعُ دِينه بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا** » . (رواه مسلم)

* وعن عدىِّ بن حاتم ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

« **اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تَمْرةٍ ؛ فمَنْ لم يجدْ فبكلمةٍ طيِّبةٍ** » . .

(متفق عليه)

* * *

(١) سورة النبأ : ٤٠ . (٢) سورة الانفطار : ١٩ .
(٣) سورة المطففين : ٦ .